رُوحٌ مُحلِّقَةٌ وَهَانِئَةٌ

غسان الخنيزي

العمّات سيأتين
ولن تكون وجوهُهن موسمةً بالنيلي
كما كانت يومَ قضى جدّي في الكوفة
حيث حبوت مرّةً
وسقطَتْ ورقة التوت، مرّة.
وفي باحة المسجد
مددت يديّ إلى أقصاهما
أطوّقُ العمودَ الذي من رخامٍ،
فما قدرتُ
وعرفت كم هي خاطفةٌ
وتلمح لمحاً، حياتي.

في الباحةِ، الرخامُ أصفرُ
والبئرُ التي في الجوارِ قديمةٌ على الأقلّ
سماءُ الكوفةِ صفراءُ أيضاً.

أوَليست الريح التي تذرُّ الغبارَ في العيون، ساطية؟
أوليست تلوّن ما تبقّى من حياتي؟

العمّاتُ لن يدخلنَ وسط الحلقة
كي يكنّ فُرجةً
لنسوةٍ مختّراتٍ بالأسود.

سأكون قد حزنت قليلاً
لأنّ دمعهنّ لن يُكفكف
إلاّ لأن الحياةَ تمضي
كما عهدنا
كما لو أنها هانئةٌ والبالُ مرتاحٌ
والحزنُ، ليس عراقيّاً تماماً.

سترقص نسوةٌ حبيباتٌ
وتبانُ بشرةُ أذرعهن من بين السواد
كيما ينغمر طفلٌ، في الكوة،
يرقبُ الأكفَّ تهبط حاميةً على الوجوه.

ستجلسُ الخالاتُ الأكثرُ تحناناً
يكبلهنَّ ضيقُ النَفَس، والربو.

لا زغاريدَ،
ولكن حسينٌ، سلوتُهن
الأقربُ إلى القلب
يأتي عندما يشحُّ الندم على المعيشة
ويفقد الحنين عقاره.

في الغبش، سيأتي الأرحامُ
وتصطفُّ بضعُ نساءٍ
في الدهليزِ، تعباتٍ
صوتهن سيكون مبحوحاً قليلاً أو كثيراً
والنفوس، ولا أصفى.
لأنّ العزاءَ أقربُ إلى وقع أيّامهن
والغريب مأسورٌ بماء عطشهن
وحاضرٌ،
كحضور الرجال في الحياة.

اللواتي سيأتين من الضواحي
ومن الثغور
سيدخلن، بالتوالي
كلٌّ بقارئةٍ وقصيد
رافعات السواد إلى الأعلى
يولولن، لأن الحزن هكذا، أظهر.

سينشر بعضهن الشعور
في حين ستلم أخريات خصلاتهن
كي يغفين على السجع الرتيب
لقارئةٍ
ستغلق كتابها بين حين وآخر
لترفعه فوق الرقاب وتصفّق نادمةً
لأن الحزن لحمتهن
وبلسمٌ لأكبر الآلام، وأعذبها.

لا عتمةَ،
وسبعون قمراً
ستضيء ما تدلّس من الأماكن
لتسطع الغيماتُ
ويُسمع هزيمُ احتدامِها
دون مشقّةٍ
ونسائمُ ليست حزينةً تتغلغل
بَين الشقوقِ كيما يُلملمُ كساءٌ
وتُرى الأغصانُ، ليلةَ الدفن، تتمايل
في طارفٍ
لحظةَ تنفلت الكهرباءُ من الأعالي.

في الغرفِ
ستهسهسُ الكهرباءُ أيضاً
ولعلّها روحي الطريدةُ، تطيشُ.
الرعشة ستُحسُّ
حيثما وُضعتْ أقدامٌ عاريةٌ على الأرض.
واللمعُ،
سيضيء أنصافَ الوجوهِ
كما أضاء سبعونَ قمراً ليالي دفننا
لنرى إلى النباتات، من الشقِ،
تكبر رعباً، أو هناءً.